﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ [الأحزاب: 20]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المنافقون يزدادون جبنًا وخسَّةً وذهابُ الأحزابِ لا يُغيِّر من حالهم

لَمّا ذكرتِ الآيات السّابقةُ مواصفات المُنافقينَ والَّذينَ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ مِن فِتْنَتِهِمْ في المُسْلِمينَ، وقارنت الآياتُ بين حاليهم عند مجيءِ الخوفِ وذهابِه؛ ناسب أن يذكرَ حقيقةَ حالِ الأحزابِ في هذه اللحظات، وهي تومِئ إلى أنَّ القومَ قد أصابهم الشُّعور بالأمانِ، فانطلقت ألسنتهم بسوءِ المقال، فأخبرت الآيةُ عن انْكِشافِ جُنودِ الأحْزابِ عَنْهم، فَأفادَ بِأنَّ انْكِشافَ الأحْزابِ حَصَلَ عَلى حينِ غَفْلَةٍ مِنَ المُنافِقينَ؛ فَلِذَلِكَ كانوا يَشْتَدّونَ في مَلامِ المُسْلِمينَ، ويَسْلُقونَهم بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ عَلى أنْ تَعَرَّضوا لِلْعَدوِّ الكَثيرِ، وكانَ اللّه ساعَتَئِذٍ قَدْ هَزَمَ الأحْزابَ، فانْصَرَفوا، وكَفى اللّه المُؤْمِنينَ شَرَّهم، ولَيْسَ لِلْمُنافِقينَ وساطَةٌ في ذَلِكَ، ولَعَلَّهم كانوا لا يَوَدّونَ رُجوعَ الأحْزابِ دونَ أنْ يَأْخُذوا المَدينَةَ[1]، فَفي الآية بيانٌ لشِدَّةِ خوْفِهِم وجُبْنِهم وهَلَعِهم وسوءِ طَوِيَّتِهم، وأنَّه لو رجعَ الأحزابُ؛ لرجعوا إلى سابق عهدِهم بل أشدَّ منه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْأَحْزَابَ﴾: (حزب) أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ تَجَمُّعُ الشَّيْءِ، فَمِنْ ذَلِكَ الحِزْبُ الجَماعَةُ مِنَ النّاسِ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: 53]، والطّائِفَةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حِزْبٌ، يُقالُ:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 300.

قَرَأ حِزْبَهُ مِنَ القُرْآنِ[1]، وحَزَبَ الأمرُ، فَهوَ يَحْزُبُ حَزْبًا؛ إذا نابَكَ؛ فَقَدْ حَزَبَك، والحِزْبُ: أصحابُ الرجل مَعَهُ على رَأْيه، وكُلُّ قومٍ تَشاكلت قُلوبُهم وأعْمالُهم؛ فَهُمْ أحْزابٌ، وتَحَزَّبَ القومُ؛ إذا تَجَمَّعوا؛ فصاروا أحْزابًا، والحِزْبُ: النَّصيبُ، يُقال: أعْطِني حِزْبي مِنَ المالِ، أي: حَظّي ونَصيبي[2]، وحَزَبَ قَوْمَهُ، فَتَحَزَّبوا، أي: صاروا طَوائِفَ، وفُلانٌ يُحازِبُ فُلانًا: يَنْصُرُهُ، ويُعاضِدُهُ[3]، والأحْزابُ: جُنودُ الكُفّار، تألَّبوا، وتَظاهَروا عَلَى حزبِ النَّبيِّ ﷺ، وهُمْ: قُرَيْشٌ وغَطَفانُ وبَنو قُرَيْظَةَ[4].

2) ﴿يَوَدُّواْ﴾: (ودّ) كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى مَحَبَّةٍ، ودِدْتُهُ: أحْبَبْتُهُ، ووَدِدْتُ أنَّ ذاكَ كانَ؛ إذا تَمَنَّيْتَهُ، وفي المَحَبَّةِ الوُدُّ[5]، فالوُدُّ مَصدرٌ للمَوَدَّةِ، وكَذَلِكَ الوِدادُ، والوِدادة مصدر وددْتُ أوَدُّ، وهوَ مِن الأُمْنيَّة، وفلانٌ وِدُّكَ ووَديدُك، كَما تَقول: حِبُّك وحَبيبُك، ويُقال في الحُبِّ: الوُدُّ والوَدُّ والمَوَدَّةُ والمَوْدَدَةُ[6]، والمَعْنَى المحْوَريُّ التَّلازُمُ والتَّماسُكُ المُمْتَدُّ، مَعَ رِفْقٍ أوْ لينٍ، للاحْتِواءِ على مادَّة ذلك[7]، والوُدُّ مَحَبَّةُ الشَّيْءِ، وتَمَنّي كوْنِهِ، ويُسْتَعْمَلُ في كُلِّ واحدٍ مِنَ المَعْنَيَيْنِ، عَلَى أنَّ التَّمَنّي يَتَضَمَّنُ مَعْنَى الوُدِّ؛ لأنَّ التَّمَنّيَ هوَ تَشَهّي حُصولِ ما تَوَدُّهُ[8]، وثَمَّةَ فَرقٌ بينَ الودِّ والتَّمنّي، وهوَ أنَّ الودَّ للمُمْكِنِ وغيرِ الممكنِ، والتَّمنّي غالبًا للمُحالِ والمُسْتَبْعَدِ.

3) ﴿بَادُونَ﴾: (بدو) أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ ظُهورُ الشَّيْءِ، يُقالُ: بَدا الشَّيْءُ يَبْدو؛ إذا ظَهَرَ، فَهوَ بادٍ، وسُمّيَ خِلافُ الحَضَرِ بَدْوًا مِنْ هَذا؛ لِأنَّهُمْ في بَرازٍ مِنَ الأرْضِ، ولَيْسوا في قُرًى تَسْتُرُهُمْ أبْنِيَتُها، والباديَةُ خِلافُ الحاضِرَةِ[9]، أي: تظهرُ فيها الأشياءُ، أو يكونُ عَلَى النَّسَبِ، أي: ذاتُ بَدْوٍ[10]، والمعنى: أن يكونَ هؤلاء المنافقون فاعِلينَ لِلْبَدْوِ، وهو الإقامَةُ في الباديَةِ عَلى حالَةِ الحَلِّ والارْتِحالِ[11].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حزب).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (حزب).
(3) الزمخشري، أساس البلاغة: (حزب).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حزب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ود).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (ودد).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ودد).
(8) الراغب، مفردات القرآن: (ودد).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدو).
(10) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بدو).
(11) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 321.

4) ﴿أَنۢبَآئِكُمۡۗ﴾: (نبأ) قياسُهُ الإتيانُ مِنْ مَكانٍ إلَى مَكانٍ، يُقالُ لِلَّذي يَنْبَأُ مِنْ أرْضٍ إلَى أرْضٍ نابِئٌ، وسَيْلٌ نابِئٌ: أتَى مِنْ بَلَدٍ إلَى بَلَدٍ ورَجُلٌ نابِئٌ مِثْلُهُ، ومِنْ هَذا القياسِ النَّبَأُ: الخَبَرُ؛ لِأنَّهُ يَأْتي مِنْ مَكانٍ إلَى مَكانٍ، والمُنْبِئُ: المُخْبِرُ، وأنْبَأْتُهُ ونَبَّأْتُهُ، والنَّبْأةُ: الصَّوْتُ، وهَذا هوَ القياسُ؛ لِأنَّ الصَّوْتَ يَجيءُ مِنْ مَكانٍ إلَى مَكانٍ[1]، وجَمْعُ النَّبأِ: أنْباءٌ، وإنَّ لِفُلانٍ نَبَأً، أي: خَبَرًا[2]، والنَّبَأ خبرٌ ذو فائدةٍ عَظيمَةٍ، يَحْصُلُ بِهِ عِلْمٌ أو غَلَبَة ظنٍّ، ولا يُقالُ للخَبَرِ في الأصلِ: نَبَأٌ؛ حتَّى يتضمَّن هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ، وحَقُّ الخبرِ - الَّذي يُقال فيه: نَبَأٌ - أنْ يَتَعَرَّى عنِ الكَذِبِ، كالتَّواترِ، وخَبَرِ اللهِ تَعالَى، وخبرِ النَّبيِّ ﷺ، ولتضمُّن النَّبأِ معنى الخبر يقالُ: أنْبَأْتُهُ بِكَذا، كقولِك: أخبرتُه بِكذا، ولتضمُّنِه مَعْنَى العلم؛ قيل: أنْبَأْتُهُ، والمرادُ بالأنباءِ: أخْبارُ النَّبيِّ ﷺ وأصْحابِهِ، فهُم يسألون: أما هَلَكَ مُحَمَّدٌ وأصْحابُهُ؟ أما غَلَبَ أبو سُفْيانَ وأحْزابُهُ[3]؟.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ الأخلاقِ الملازمةِ للمنافقين بما يصدرُ عنهم من الأفعال

تُبيِّن الآيةُ الكريمةُ صِفاتِ المنافقين القبيحةَ في الجُبنِ والبُخْلِ والخَوْفِ المُلازمة لَهُم عَلَى الدَّوام، فهي لَيْسَتْ مُجَرَّدَ أمرٍ عارضٍ مؤقَّتٍ، فقال: ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ﴾، أي: يَظُنّونَ مِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ والفَزَعِ أنَّ أحْزابَ الكُفْرِ مِنْ قُرَيْشٍ وغَطَفانَ وبَني قُرَيْظَةَ لمْ يَرْحَلوا، ولمْ يَنْهَزِموا، وأنَّ لَهُم عودةً إلَى الحِصارِ والحربِ، فَكَأنَّهُم عِنْدَ حضورِهِم غائِبونَ عنِ السّاحَةِ حيثُ لا يُقاتِلونَ، مع أنَّ الأحزابَ رَحَلوا، وانْهَزَموا، ولَنْ يَعودوا، وإنْ يَعُدِ الأحْزابُ إلَى قِتالِكُم؛ يتمنَّوا أنَّهُم لا يكونونَ حاضِرينَ مَعَكُم في المَدينَةِ وبَينَ المُقاتِلينَ، بَلَ يَكونونَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبأ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نبأ).
(3) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 387.

في البادية يَسْألونَ عنْ أخْبارِكُم، وما كان مِنْ أمْرِكُم مَعَ عدوِّكم للشَّماتَةِ بِكُم، وانتظارِ وُقوعِ السّوءِ بِكُم، جُبْنًا وخَورًا في العَزائِم، ولَوْ كانَ هؤلاءِ المُنافِقونَ مَعَكُم في ساحةِ المَعْرَكةِ؛ لما قاتَلوا إلّا قِتالًا يَسيرًا وزَمَنًا قَليلًا؛ لاسْتيلاءِ الجُبْنِ والضَّعْفِ عليهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ الآيةِ عَمّا قَبْلَها:

ارتباطُ النَّصْرِ بمنَّةِ اللهِ على المؤمنينَ بنجاتِهم من كيدِ الأحزابِ

فَصَلَ النَّظْمُ الحكيمُ جملةَ: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ عَمّا قَبْلَها، وهوَ قوْلُه سبحانَه: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾؛ لأنَّ هذهِ الجملةَ تُعدُّ اسْتِئْنافًا ابْتِدائيًّا مُرْتَبِطًا بقَوْلِه: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ [الأحزاب: 9]، جاءَ عَوْدًا على بَدْءٍ بِمُناسَبَةِ ذِكْرِ أحْوالِ المُنافِقين، فإنَّ قَوْلَهُ: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾، يُؤْذِنُ بانْهِزامِ الأحْزابِ ورُجوعِهِمْ عَلى أعْقابِهِمْ، أيْ: وقَعَ ذَلِكَ، ولَمْ يَشْعُرْ بِهِ المُنافِقونَ.

ويَجوزُ أنْ يَكونَ المَعْنى: أنَّهم كانوا يَسْلُقونَ المُؤْمِنينَ اعْتِزازًا بالأحْزابِ؛ لأنَّ الأحْزابَ حُلَفاءُ لِقُرَيْظَةَ، وكانَ المُنافِقونَ أخِلّاءَ لِلْيَهودِ، فَكانَ سَلْقُهُمُ المُسْلِمينَ في وقْتِ ذَهابِ الأحْزابِ، وهم لا يَعْلَمونَ ذَلِكَ، ولَوْ عَلِموهُ؛ لَخَفَّضوا مِن شِدَّتِهِمْ عَلى المُسْلِمينَ، فَتَكونُ جُمْلَةُ ﴿يَحْسَبُونَ﴾ حالًا مِن ضَميرِ الرَّفْعِ في ﴿سَلَقُوكُم﴾، أيْ: فَعَلوا ذَلِكَ حاسِبينَ الأحْزابَ مُحيطينَ بِالمَدينَةِ ومُعْتَزّينَ بِهِمْ، فَظَهَرَتْ خَيْبَتُهم فيما قَدَّروا[1]، وعليه فجملةُ الحال تابعةٌ لفعل ﴿سَلَقُوكُم﴾، فلا فصل.

نكتةُ استعمالِ مفردة ﴿يَحْسَبُونَ﴾:

الحُسْبانُ ظنٌّ ممزوجٌ بحسابٍ وجمعٍ للأدلَّةِ

جاءَ استعمالُ مفردة الحسبان في قولِ اللهِ تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾؛ لأنَّ الحُسْبان هوَ الظَّنُّ القائِمُ عَلى حِسابٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 301.

حِسّيٍّ، وقَلْبيٍّ، أو الاعْتِقادُ القائمُ عَلَى النَّظَرِ والتَّجْرِبَةِ[1]، فالحسبان ظنٌّ مع جمعِ المظنونِ كلِّه، كأنَّه جمع كما يجمع العادُّ، ثم يأتي الظَّنُّ الذي هو ممزوج بالحساب، فهو أدقُّ من الظَّنِّ وأشمل، فالحُسْبانُ قائمٌ عَلَى الحِسابِ والنَّظَرِ العَقْليِّ، بِخِلافِ الظَّنِّ الَّذي يَدْخُلُ الذِّهْنَ ويُلابِسُهُ لأدْنَى سَبَبٍ[2]، ومِنْ هُنا فقدْ آثَرَ البيانُ القُرْآنيُّ التَّعبيرَ بالفعلِ ﴿يَحْسَبُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى حرْصِ المُنافقينَ على هَزيمةِ المسلمينَ، فَهُم يُراجِعونَ حساباتِ القوَّةِ في عُقولِهم المرَّةَ تلوَ المَرَّةِ، راغِبينَ في انكسارِ المسلِمينَ وهَزيمَتِهم.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ:

خـوفُ المنافقين مـتـجـدِّدٌ في الواقع والأوهام

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ بصيغَةِ المُضارَعةِ، دونَ صيغَةِ المُضيِّ؛ إشارَةً إلى تجدُّدِ فِعْلِ الحُسبانِ في عقولِ المُنافقينَ المرَّةَ تِلْوَ الأخرى، فأشعَرتِ المُتلَقّي بأنَّ القومَ كأنَّهُم لا يَزالونَ إلى اليومِ خائِفينَ، تتوارَدُ على خَواطِرِهم الأوهامُ، تُريهُم الأحزابَ حولَ الخَنْدَقِ رابِضينَ، فالمضارعُ يُحضِرُ هذا الحدثَ الأهمَّ الدالَّ على انْخِلاعِ القُلوبِ، ويُصَوِّرُهُم في حُسْبانِهِم وظُنونِهم وأوْهامِهم، كأنَّهُم يَعُدّونَ هذه الخواطِرَ والظُّنونَ على أصابِعِهِم في عَتَهٍ وحَنَقٍ وجُنونٍ[3].

نكتةُ التَّعْبيرِ بِالضَّميرِ دونَ الظّاهِرِ:

الإشـــارةُ إلى المـنـافـقـين تهويـنٌ لشأنِهم وتـصـغـيرٌ لواقعهم

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ بالضميرِ في فعلِ ﴿يَحْسَبُونَ﴾ دونَ إظْهارِ الاسمِ (المنافقين)؛ وذَلِكَ لأنَّ السّياقَ كُلَّه حديثٌ مُتَّصِلٌ عنِ المُنافِقينَ، فلا مجالَ لانصرافِ الضَّميرِ إلى غَيْرِهِم، فآثَرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعْبيرَ بالضَّميرِ للإيْجازِ والاخْتِصارِ، كما أنَّ التَّعبيرَ بالضَّميرِ في

(1) محمد الهلال، تفسير الثري الجامع: 8/ 85.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 2/ 23 - 24.
(3) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 148.

هذا السّياقِ يوحي بأنَّهم لِهَوانِهم على اللهِ لا يَسْتَحِقّونَ الذِّكْرَ، وإن ذُكِروا؛ فلذمِّهم.

غرضُ التَّعْبيرِ بِلفظِ ﴿ٱلْأَحْزَابَ﴾ عَنِ الكُفّارِ:

خـطـورةُ الكفرِ كانت في تحزُّبِه على المؤمنين

آثر النَّظْمُ استعْمالَ مُفْرَدَةِ ﴿ٱلْأَحْزَابَ﴾ دون الكفار في قوْلِه تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾؛ إظْهارًا لِما تَعَرَّضَ لَه المسلمونَ من تألُّبِ ظالمٍ وجَمْعٍ غادرٍ تَوَجَّه نَحْوَهُم؛ ليَسْتأصِلَ وُجودَهم في المدينةِ المُنَوَّرَةِ، فالمُحاصِرونَ للمدينةِ قوم تَشاكلت قُلوبُهم وأعْمالُهم، فَهُمْ أحْزابٌ يَبْغونَ هلاكَ الإسلامِ والمسلمين، ومِنْ ثَمَّ فَإنَّ التَّعْبيرَ بِلَفْظِ (الكُفّارِ) لا يُناسبُ خصوصيَّةَ السورةِ، وما عَرَضتْ لهُ من تفاصيلِ غَزْوَةِ الأحزابِ، وما وقعَ فيها من أحْداثٍ هائِلَةٍ وخوفٍ شديدٍ على استئصالِ بَيضَةِ الإسلامِ ومَعْقِلِ الإيمان، ولبيانِ أنَّ الخطورةَ كانت في تحزُّبِ الكفّار على المؤمنين، وأنَّ اللهَ وحدَه هو القادرُ على كسرِ شوكتِهم، وتمزيقِ وحدتهم.

دلالَةُ جَمْعِ لفظ ﴿ٱلْأَحْزَابَ﴾:

الأحـزابُ جموعٌ هائلة، تَشَكَّلتْ مـن طـوائـفَ مـخـتـلـفـةٍ، وأماكن متفرِّقة

جاءتْ كَلِمَةُ ﴿ٱلْأَحْزَابَ﴾ في قَوْلِه تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ جَمْعًا؛ لتدلَّ على تلكَ الجُموعِ الهائِلَةِ الَّتي جَمَعها أبو سفيانَ لحربِ المسلمين، فقدْ كانَ جَيشُه مُؤَلَّفًا من أحزابٍ عدَّةٍ، فَقَدْ خَرَجَتْ قُرَيْشٌ في أحابيشِها، ومَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ العَرَبِ مِنْ كِنانَةَ وأهْلِ تِهامَةَ، فَكانوا أرْبَعَةَ آلافٍ، وخَرَجوا يَقودُهُمْ أبو سُفْيانَ بْنُ حَرْبٍ، ووافَقَهُمْ بَنو سُلَيْمٍ بِمَرِّ الظَّهْرانِ، وهُمْ سبعُمئةٍ يَقودُهُمْ سُفْيانُ بْنُ عَبْدِ شَمْسٍ حَليفُ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ، وخَرَجَتْ مَعَهُمْ بَنو أسَدٍ، يَقودُهُمْ طُلَيْحَةُ بْنُ خوَيْلِدٍ، وخَرَجَتْ قَبائِلُ غَطفانَ: بَنو فزارَةَ، وهُمْ ألْفٌ يَقودُهُمْ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ، وبَنو مُرَّةَ، وهُمْ أربعُمئةٍ، يقودهمُ الحارِثُ بْنُ عَوْفٍ، وبَنو أشْجَعَ، وهُمْ أربعُمئةٍ، يَقودُهُمْ مِسْعَرُ بْنُ رُخيلَةَ، وخَرَجَ مَعَهُمْ قَوْمٌ آخَرونَ، فَكانَ جَميعُ الذينَ وافَوُا الخَنْدَقَ عَشَرَةَ

آلافٍ[1]، فجاءت الكلمةُ جمعًا؛ لِتُعَبِّرَ عن هذه الجموعِ الكثيفةِ الَّتي تآلَبتْ على حرب المسلمينَ، فهُم طوائفُ متعدِّدَةٌ، اجتمعتْ لهدَفٍ واحدٍ، فهيَ أحْزابٌ كثيرةٌ لا حزبٌ واحدٌ.

نكتةُ النَّفْيِ بأداةِ ﴿لَمْ﴾:

غيابُ الإيمانِ عن قلوبِ المنافِقينَ لم يجعلهم يرجون ذهابَ الأحزاب

اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحَكيمُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ أداةَ النَّفْيِ ﴿لَمْ﴾ دونَ غَيرِها مِن أدَواتِ النَّفْيِ؛ وذلكَ لأنَّ مِن خصائص النَّفْيِ بـ(لمْ) أنَّها تَقْلِبُ زَمنَ المضارعِ ماضيًا، فَهيَ حرفُ نَفْيٍ وجَزْمٍ وقَلْبٍ، والمَنْفيُّ بِها قَدْ يَكونُ مُنْقَطِعًا، وقدْ يَكونُ مُتَّصِلًا بالحالِ، وقدْ يَكونُ مُسْتَمِرًّا[2]، ولَمّا كانَ المُرادُ في هذا السّياقِ التَّعبيرَ عنْ مدَى شَكِّ المنافقينَ وسوءِ ظَنِّهِم باللهِ، فهُم ينْفونَ ذَهابَ الأحزابِ في الماضي القريبِ، أو في الوقتِ الحاليِّ، وهوَ تلكَ اللحظاتُ القريبةُ من المناوشاتِ الَّتي جَرتْ، وبعدَ هبوب الرياحِ عَلَى جيوشِ الأحزاب، فكانَ استعمالُ ﴿لَمْ﴾ لِلتَّعبيرِ عن الأليقِ بالسياقِ، والتَّعبيرِ عن سَيْطَرةِ الشَّكِّ في انتصارِ المسلمينَ على عقولِ المُنافقينَ وقُلوبِهم، ولو قال: (لمّا يذهبوا)؛ لكان هناك رجاءٌ عند المنافقين بذهابهم، لكنَّ الآية تُبيِّن أنَّ المنافقين لم يرجوا ذهاب الكفّار، بل لم يحسبوا ذلك، وهو دالٌّ على أنَّ قاعدة الإيمان والثِّقة باللهِ تعالى غائبةٌ عن وعيهم.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمُضارِعِ المَنْفيِّ:

شِدَّةُ خوفِ المُنافِقينَ دعتهم إلى عَدَمِ تَصَوُّرِ إمكانِ هَزيمةِ الأحزابِ

دَلَّ التَّعْبيرُ بالمُضارعِ المَنْفيِّ ﴿لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ على شِدَّةِ تَمَكُّنِ الخوْفِ من نُفوسِ هؤلاء المنافقينَ، فَهُم مِنَ الجَزَعِ والدَّهْشَةِ لِمَزيدِ جُبْنِهِمْ وخَوْفِهِمْ بِحَيْثُ هَزَمَ اللهُ الأحْزابَ، فَرَحَلوا، وهم يَظُنّونَ أنَّهم لَمْ يَرْحَلوا، وقيلَ: المُرادُ أنَّ هَؤُلاءِ لِجُبْنِهِمْ يَحْسَبونَ الأحْزابَ لَمْ يَنْهَزِموا

(1) ابن كثير، البداية والنهاية: 3/ 278.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 9.

- وقَدِ انْهَزَموا - فانْصَرَفوا عَنِ الخَنْدَقِ راجِعينَ إلى المَدينَةِ لِذَلِكَ، فالظّاهِرُ أنَّهُ مَأْخوذٌ مِن قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾؛ لِدِلالَتِهِ ظاهِرًا عَلى أنَّهم خارِجونَ عَنْ مُعَسْكَرِ رَسولِ اللّه ﷺ يَحُثّونَ إخْوانَهم عَلى اللَّحاقِ بِهِمْ، وكَوْنُ المُرادِ هَلُمّوا إلى رَأْيِنا، أوْ إلى مَكانِنا الَّذي هو في طَرَفٍ لا يَصِلُ إلَيْهِ السَّهْمُ خِلافُ الظّاهِرِ، وكَذا مِن قَوْلِهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم﴾ عَلى ما هو الظّاهِرُ أيْضًا؛ إذْ يَبْعُدُ حَمْلُهُ عَلى اتِّحادِ المَكانِ، ولَوْ في الخَنْدَقِ[1]، والتَّعبيرُ دالٌّ كذلكَ على هزيمَتِهم النَّفْسيَّةِ لعدَمِ إيمانِهم، فَهُم لا يتصوَّرون إمكانَ هَزيمَةِ الأحزابِ بقوَّةِ اللّهِ ومَنِّه وكرَمِه.

نكتةُ استعمالِ أداةِ (إن):

نُفوسُ المنافقينَ مُهَيَّأةٌ للتَّولّي والفِرارِ وتركِ مجابهةِ الكُفّار

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بأداةِ الشَّرْطِ (إنْ) - دونَ الظَّرْفِ المُفيدِ للشَّرْطِ (إذا) - الَّتي تفيدُ القطعَ بوقوعِ شرطِها غالبًا، أمّا (إنْ)؛ فإنَّها إنَّما تُستَعْمَلُ لغيرِ المقطوعِ بوقوعِه، الَّذي يحتملُ الشَّكَّ، وفي ذلكَ بُشْرى للمُسْلِمينَ بانْتِصارِهم عَلى عدوِّهم الَّذي أحْدَقَ بِهِم، وأفادَت كَذَلِكَ أنَّ عَوْدَةَ الأحْزابِ - وإنْ كانَ أمْرًا غَيرَ مقْطوعٍ به - يكونُ مبعَثًا لِهذِهِ الوِدادَةِ مِنَ المُنافِقينَ، فَنُفوسُهم مُهَيَّأةٌ دائمًا للتَّولّي والفِرارِ، والاسْتِقْبالُ في (إن) يُفيدُ أنَّ ما كانَ مِنْهُم في الماضي هوَ الكائِنُ مِنْهُم الآن، والَّذي سيَكونُ مِنْهُم في المُسْتَقْبَلِ، وهوَ المُتَجَدِّدُ مَعَ تَجَدُّدِ هذا الزَّمانِ، فالجُبْنُ فيهِم جِبِلَّةٌ لا تَزولُ[2].

نُكتةُ تَكرارِ لفظِ ﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾:

تكرارُ ذكرِ المخوفِ منه إيماءٌ إلى تردّي الخائفِ منه

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ إظهارَ لفظِ ﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾ في قَوْلِه تعالى: ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ دون إضمارِه احتراسًا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 164.
(2) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 149.

عن تداخُل الضَّمائرِ بينَ المنافقينَ والأحزابِ، كما أنَّ الإتيانَ بكلمةِ ﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾ مُظْهَرةً تعبيرٌ عن السَّبَبِ الأوَّلِ في هَلَعِ المُنافقينَ وخَوْفِهم، فأبانَ النَّظْمُ عنْ مَكْمَنِ خَوْفِهم وفقَ حُسْبانِهم وظَنِّهم.

بلاغةُ التَّعْبيرِ بلفظِ (الوُدِّ):

رغبةُ المنافقين أن يكونوا في الباديةِ اختيار العقل والقلب

في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بلفظِ الوُدِّ دونَ التَّمَنّي؛ لأنَّ الوُدَّ أعَمُّ مِنَ التَّمَنّي، إذِ التَّمَنّي غالبًا ما يكونُ فيما يُظَنُّ أنَّه مِنْ قَبيلِ المُحالِ أوِ المُسْتَبْعَدِ، ولمّا كانَ فِرارُ المُنافقينَ مِنَ الأُمورِ المُمْكِنَةِ بالنِّسْبَةِ لَهُم؛ ناسب ذكر الودِّ، فالفِرارُ أمْرٌ في مَقْدورِهم، بل همْ مُعتادونَ عليه، بالإضافةِ إلى أنَّ الوُدَّ هوَ مَحَبَّةُ الشَّيْءِ، وتَمَنّي حُدوثِه[1]، فقدَ يتَمنَّى الإنسانُ الشَّيْءَ، ولا يُحِبُّه، كتَمَنّي الموتِ لِمَنْ بَلَغَ بِهِ المَرَضُ مَبلغَهُ، أمّا الوُدُّ؛ فهو تَمَنّي الشَّيء معَ مَحَبَّتِه، وهَؤلاءِ المُنافقونَ لَفَرْطِ جُبْنِهم وهَلَعِهم يُحِبّونَ الفرارَ، ويَتَمَنَّونَه؛ ضيقًا بالمُسْلِمينَ ورَغْبَةً في هَزيمَتِهم، وإنَّ تأمُّلَ وقْعِ كلمةِ ﴿يَوَدُّواْ﴾ يَكْشِفُ بِجَلاءٍ عنْ أنَّ هذه الرَّغْبَةَ قدْ خالَطَتْ قُلوبَهم، ومَسَّتْ شِغافَها، فَقَدْ عَظُمَتْ فيها رَغْبَتُهم، وتَمَنَّتْها أرْواحُهم، وجاشَتْ بِها سَرائِرُهم[2].

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمُضارِعِ:

ودُّ المُنافقينَ الذَّهابَ في الباديةِ سجيَّةٌ نابعةٌ من حميَّة

جاءَ التَّعبيرُ بصيغَةِ المضارعِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ﴾؛ للدَّلالَةِ على تَجَدُّدِ رَغْبَةِ المُنافقينَ في الذَّهابِ إلى الباديةِ واسْتِمْرارِها في حالِ إتْيانِ الأحزابِ مرَّةً أُخْرَى إلى حَصارِ المَدينةِ، أيْ: "يَتَجَدَّدُ لَهم غايَةُ الرَّغْبَةِ مِنَ الجُبْنِ وشِدَّةِ الخَوْفِ"[3]، فليسَ الأمْرُ تفكيرًا عارِضًا، إنَّما هيَ رَغْبَةٌ مستَمِرَّةٌ لا

(1) الراغب، مفردات القرآن: (ودد).
(2) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 149.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 301.

تَنْقَطِعُ، وذَلِكَ لجِبِلَّةِ الخَوْفِ الَّذي تَمَكَّن من قُلوبهم، بل إنَّ الفعل لَيدُلُّ على أنَّهم فكَّروا بذلك مرارًا حتَّى أصبح ودُّهم لهذه القضيَّة سجيَّة لهم.

دَلالَةُ الإضمارِ بِواوِ الجَماعَةِ:

النَّظْمُ القرآنيُّ يقتصدُ في ذكرِ المعرَضِ عنهم

أعْرَضَ النَّظْمُ الحكيمُ مَرَّةً أُخرى عنْ ذِكْرِ اسمِ المُنافقينَ مُظْهَرًا في النَّصِّ الكريمِ، وآثَرَ التَّعبيرَ عَنْهُم بالضَّميرِ (واوِ الجَماعَةِ)، رغْمَ بُعدِ المَسافَةِ عن أقربِ إظهارٍ لاسمِهم وصِفَتِهم في قَوْلِه تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: 12]، وقَوْلِه: ﴿۞قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وذَلِكَ لأمرين: **الأوَّل**: أنَّ السّياقَ كُلَّهُ يَدورُ حولَ بيانِ مَوْقِفِهم، فَلا حاجةَ للإطنابِ بإعادَةِ ذِكْرِهم، ولأنَّ الضَّمائِرَ مِنَ الوضوحِ بِحَيثُ لا تتَداخل معَ غَيْرِهم، خاصَّةً معَ التَّصْريحِ باسمِ الأحْزابِ مُظْهَرًا في الآيةِ نَفْسِها، **والآخر**: أنَّ النَّظْمَ الحَكيمَ يُعْرِضُ عَنْ ذِكْرِهم للتَّقليل من اسمهم في مواطن الشَّرف.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بأداةِ ﴿لَوْ﴾:

حملتْ أداةُ (لو) معنى التَّمنّي من سياقِ الكلام

استعمل النَّظْمُ الحكيمُ في قوله تعالى: ﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ حرف ﴿لَوْ﴾، وقدْ حَمَلتْ ﴿لَوْ﴾ هَهُنا مَعْنَى التَّمَنّي[1]؛ لأنَّها ورَدَت بَعْدَ الفعلِ ﴿يَوَدُّوا۟﴾[2]، فَأكَّدَتْ شِدَّةَ رَغْبَتِهم في الفِرارِ خَورًا وجُبْنًا، فَهُمْ يَتَمَنَّونَ أيَّ مَخرَجٍ للهَرَبِ مِن القِتالِ والفِرارِ مِن مُعَسكَرِ المُؤمنينَ.

دَلالَةُ التَّأْكيدِ وغرضه:

التَّأكيدُ يكونُ لبيانِ شدَّةِ الرَّغبةِ والحرصِ

أكَّدَ النَّظْمُ الحَكيمُ شِدَّةَ رَغْبَةِ المُنافقينَ في الفِرارِ إنْ عاوَدَ الأحْزابُ الكَرَّةَ مَرَّةً أُخرى، باسْتِعمالِ الجُمْلَةِ الاسميَّةِ المُؤَكَّدَةِ بـ(أنَّ)

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 90.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 301.

في قولِه تعالى: ﴿يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ﴾، وعَدَلَ عن استِعمال الجملةِ غيرِ المُؤَكَّدَةِ، فَلَمْ يقل: (يَوَدّوا لَوْ هُمْ بادونَ في الأعْرابِ)، وفي هذا العُدولِ دَليلٌ على شِدَّةِ رَغْبَتِهم في الفرارِ خَوْفًا مِنَ الأحزاب.

دَلالَةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة:

المنافقون يودّون الانغماسَ في الأعرابِ دون القلقِ من الأحزابِ

آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ التَّعْبيرَ بحرفِ الجرِّ ﴿فِي﴾، دونَ الظَّرْفِ (مع)، فلمْ يَقُلْ: (بادونَ معَ الأعرابِ)؛ لأنَّ ﴿فِي﴾ هَهُنا دالَّةٌ على الظَّرْفيَّةِ المَكانيَّةِ، فَكأنَّ الأعرابَ أصْبَحوا بمنزلة وعاءٍ يَحْتَويهم؛ "ليَكونَ أكثرَ تصويرًا للمُخالطةِ، حتَّى لكأنَّهُم يعيشونَ في خيامِهِم، يَوَدّونَ ذلكَ معَ ما يَعْرِفونَه مِنْ غِلْظَتِهم"[1].

براعةُ استعمالِ لفظِ ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾:

تفضيلُ المنافقين لأصعبِ أنواعِ الحياةِ على البقاء في الخطرِ

آثَرَ النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ عنْ سُكّانِ الباديَةِ بالأعرابِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ﴾؛ إذِ الأعْرابُ: هم سُكّانُ البَوادي بِالأصالَةِ، وذلكَ لأنَّ الأعرابَ عِنْدَ المُنافقينَ في مَحَلِّ النَّقْصِ، ومِمَّنْ تُكْرَهُ مُخالَطَتُهُ[2]، أيْ: إنَّهم يَوَدّون الالتحاقَ بِمَنازِلِ الأعْرابِ لشدَّة هَلَعِهم وجُبْنِهم، حتَّى إنَّهم يرغبونَ في مخالطةِ هؤلاء الأعرابِ الَّذينَ هُم أغلظُ النّاس قُلوبًا وأجْفاهُم طبْعًا؛ خَوْفًا مِنَ القَتلِ، وتَخذيلًا عن المؤمنينَ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ المُضارع:

استقرارُ الخوف والاضطراب في قلوب المنافقين

آثَرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بصيغة المضارع ﴿يَسۡـَٔلُونَ﴾؛ لتصوير حالهم المتجدِّدة في السُّؤالِ عن أخبارِ المؤمنين في كلِّ وقت، مع استحضارٍ لِلَهفَتِهم وقَلَقِهم واضْطِرابِهم وخوفهم، فهُم يبحثون عن أخبار النَّبيِّ ﷺ والمؤمنين بالاستخبار لا بالمشاهدة فرقًا وجبنًا.

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 149.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 321.

توجيهُ القِراءات القرآنيَّة:

المنافقون يسألون النّاس عن المؤمنين ويتساءلون فيما بينهم

وَرَدَت في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ قراءتان، فَقَرَأ الجُمْهورُ: ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ عَلى (يَفْعَلون)؛ لأنَّهم كانوا يَسْألونَ عَنِ الأخْبارِ مَنْ قَدِمَ عليهم، وقَرَأ رويس ﴿يَسَّآءَلُونَ﴾ بتَشديدِ السّينِ وألف بعدها[1]، فمَنْ قَرَأ ﴿يَسَّآءَلُونَ﴾؛ فالأصْل: (يَتَساءلونَ)، فَأُدْغِمَتِ التاءُ في السّينِ، وشُدِّدَتْ، والمَعْنَى: يَسْألُ بَعْضُهُم بَعْضًا، أيْ: يَقولُ بَعْضُهم لِبَعْضٍ: ماذا سَمِعْتَ؟ وماذا بَلَغَكَ؟ أوْ يَتَساءَلونَ الأعْرابَ، كَما تَقولُ: تَراءَيْنا الهِلالَ[2].

والقِراءَتانِ من حيثُ المَعْنَى مُتَكامِلتانِ؛ إذ مِنَ الوارِدِ جدًّا أنَّهُم يسْألونَ الضّارِبينَ في الصَّحراءِ عن أنْباءِ المُسْلِمينَ، فَكُلُّ واحدٍ مِنْهُم يَسْألُ مَنْ لَقيَه في جِهَةٍ مِنَ الجِهاتِ، ثُمَّ هُم بَعْدَ ذلكَ يَسْألُ بَعْضُهُم بَعْضًا، ليَسْتَوْثِقوا مِمّا سَمِعوه، فَهُم يتَباحثونَ في أمْرِ المُسْلِمينَ كأشَدِّ ما يكونُ التَّباحُث؛ لأنَّ مصيرَهُم مُعَلَّقٌ على نَتيجَةِ المَعْرَكَةِ الَّتي فَرّوا منها، وتَرَكوها جُبْنًا وجَزَعًا.

نكتةُ التَّعْبيرِ بِالنَّبَأِ دونَ الخَبَرِ:

شِدَّةُ تَحَرّي المُنافقينَ للأخبارِ بسبَبِ شَكِّهم لا بسببِ طلبِ الصِّدق

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ التَّعْبيرَ بمادةِ (النَّبأ) دونَ مادَّةِ (الخَبَر)؛ لأنَّ النَّبَأ خبرٌ ذو فائدةٍ عَظيمَةٍ، يَحْصُلُ بِهِ عِلْمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ[3]، والمرادُ بالأنباءِ هَهُنا، أيْ: أخْبارُ النَّبيِّ ﷺ وأصْحابِهِ، يَتَحَدَّثونَ: أما هَلَكَ مُحَمَّدٌ وأصْحابُهُ؟ أما غَلَبَ أبو سُفْيانَ وأحْزابُهُ[4]؟ فأفادَ التَّعبيرُ بالأنْباءِ الإشارةَ إلَى

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 348، وقال الداني: "وفي الأحزاب في بعض المصاحف ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾: بغير ألف، وفي بعضها ﴿يَسَّآءَلُونَ﴾: بالألف"، يُنظر: الداني، المقنع، ص: 100، ولذا رسمناه هنا بالألف موافقته لرسمه وقراءته.

(2) الأزهري، معاني القراءات: 2/ 280، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 465، والخطيب، معجم القراءات: 7/ 267.

(3) الراغب، مفردات القرآن: (نبأ).

(4) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 387.

شِدَّةِ تَحَرّي المُنافقينَ لأخبارِ المُسْلِمينَ، لِشِدَّةِ رُعْبِهِمْ وخَوفِهم، فَأمْرُ المَعرَكةِ عِندَهُم عَظيمٌ خَطيرٌ، ما جَعَلَهُم يَوَدّونَ لو أنَّهمْ يَفِرّونَ، فَيكونونَ مُقيمينَ في الأعرابِ حتَّى لا يَشْهَدوا تِلْكَ المعرَكَةَ.

غرضُ جمعِ الأنباء:

الفضولُ طبعٌ في المُنافِقينَ لبلوغِ مآربِهم

جُمِع النَّبأُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾؛ للدِّلالَةِ على شِدَّةِ تَحَرُّقِ المُنافقينَ لِكُلِّ ما يَتَعَلَّقُ بالمُسْلِمينَ، فَهُم لا يَكْتَفونَ بِنَبَأٍ أوْ بِنَبأينِ، بل لا بُدَّ لَهُم مِنْ أنْباءٍ كَثيفَةٍ تُزيلُ شَكَّهُم واضْطِرابَهم، لِتأصُّلِ عادَةِ الشَّكِ في نُفوسِهم، فالجمعُ دليلُ النُّهمةِ في طلب الأنباءِ، وفيهِ دَلالةٌ على حِقْدِهم؛ إذْ يَبحثونَ عن كلِّ صَغيرةٍ وكبيرةٍ مِن أحوالِ المُؤمِنينَ راجينَ لَهُمُ الضُّرَّ والشَّرَّ.

نوعُ الإضافَةِ ودلالتُها:

الدّافعُ لاهتمامِ المنافقين بأخبارِ المؤمنين هو حسدُهم وحقدهم

أُضيف لفظُ الأنباء إلى الضمير العائد على المؤمنين في قولِه تعالَى: ﴿أَنۢبَآئِكُمْ﴾، والإضافة هنا بمعنى اللّام، فهي دالَّةٌ على تَخْصيصِ الأنْباءِ بالمُسْلِمينَ دونَ غَيْرِهِم، فَلا يَسْألُ المُنافِقونَ عن أنباءِ المَعْرَكَةِ بِصِفَةٍ عامَّةٍ، بل إنَّ اهْتِمامَهم الأكيدَ هوَ أخْبارُ المُسْلِمينَ وحْدَهم، كَأنَّ النِّكايَةَ في المُسْلِمينَ والشَّماتَةَ بهم هوَ غَرَضُهم الأوَّل، ولو كانَ تخْصيصُ الأنباءِ بالمسلمينَ للاهْتِمامِ بأمْرِهم ما تَطَلَّعوا لِمُفارَقَةِ المدينَةِ والتَّخلّي عنِ النَّبيِّ ﷺ ومَنْ مَعَهُ من المُؤمنين.

بلاغةُ تقييدِ الفعل:

امتلأت قلوب المنافقين حقدًا على المؤمنين

قَيَّدَ النَّظْمُ الحَكيمُ فعلَ السؤالِ ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ بِشِبه الجُمْلَةِ ﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾، دون إطلاق الفعل، وذلك لبيان خصوصيَّة السُّؤالِ، وأنَّه عن أنباءِ المؤمنين دون غيرِهم؛ دلالةً على حقدهم على المؤمنين ورغبتهم في نزول الأذى بهم.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِأداةِ (لو):

بَعْدَ أنْ صوَّر حالُ المنافقين إذا دَهَمَ الأحْزابُ المدينةَ كَرَّةً أُخرى،

اسْتِقْصاءُ أوْصافِ المنافقين في أحْوالِهم كُلِّها بادين ومُقيمين

وما سَيَوَدّونه من الفِرارِ؛ عَرَجَ عَلَى بيانِ حالِهم لَوْ لَمْ يَتَمَكَّنوا من الفِرارِ، واضْطُرّوا لخَوضِ غِمارِ المَعْرَكَةِ، فأتى بأداةِ الشَّرْطِ (لو) في قوْلِه تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ لبيانِ أنَّهم لو كانوا مع المؤمنين؛ لامتنعوا عن قتالِ الكافرين إلّا قليلًا؛ فاسْتَكْمَلَ النَّظْمُ التَّعبيرَ عنْ حالِهم مُقيمينَ بَعْدَ أنْ أبانَ عَنْ حالِهم بادينَ، فالجملة لاسْتِقْصاءِ أوْصافِهم في أحْوالِهم كُلِّها[1].

دَلالَةُ النَّفْيِ بِـ﴿مَّا﴾ واستعمال ﴿إِلَّا﴾:

بيانُ مَبْلَغِ ضَعْفِ المُنافِقينَ وقِلَّةِ غَناهُم في الحربِ

في قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ نَفَى البيانُ القُرْآنيُّ نَجاعَةَ قِتالِهم معَهُم إنْ عادَ الأحْزابُ لِغَزْوِ المدينةِ مرَّةً أُخْرى، باسْتِعْمالِ ﴿مَّا﴾ النّافيةِ، وأداةِ الحَصْرِ ﴿إِلَّا﴾؛ للدَّلالَةِ على مَبْلَغِ ضَعْفِهم، وقِلَّةِ غِناهُم في الحربِ، فَهُم على فَرضِ عَدَمِ ذَهابِهم في البادية، وبَقائِهم في صُفوفِ المُسْلِمينَ، فإنَّهُم لا يُقاتِلونَ إلّا قِتالًا قَليلًا لا يصُدُّ كيدَ العَدوِّ، ولا يَشُدُّ مِنْ عَضُدِ المؤْمِنينَ، وإنَّما قِتالُهُم رياءٌ وخَوْفٌ منَ التَّعْيِيرِ، فلا خيرَ في قِتالِهم[2]، "فَهُم عِنْدَ حُضورِهِمْ كَأنَّهم غائِبونَ حَيْثُ لا يُقاتِلونَ"[3].

بلاغةُ استعمال مفردة القتال دون الجهادِ:

الجِهادُ عَلَمٌ على الفريضةِ العَظيمةِ والقتالُ أشدُّ ما فيها

في قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ نفَى النَّظْمُ الحكيمُ عنِ المُنافقينَ القِتالَ إلّا قَليلًا، وقد آثرَ التعبيرَ بِنَفْيِ (القِتالِ) دونَ نَفْيِ (الجهادِ)، ونكتةُ ذلك أنَّ الجِهادَ هو اسمٌ عَلَمٌ على هذه الفريضة، وأمّا القتالُ؛ فهو أداة هذه الفريضة، والقتال قد يقع من المنافقين قليلًا كما أخبرَتِ الآية، لكنَّ عبادةَ الجهاد لا تكون منهم البتَّة؛ لأنَّ قلوبهم قد ملأها النِّفاقُ والخوف، فلا يَرجون بعملهم وجهَ اللهِ تعالى وموعوده.

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 150.
(2) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 150.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 163.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالاستثناءِ:

قتالُ المنافقين له حكم النّادر والشّاذ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ عن موقفِ المنافقينَ مِنَ الحرب باستعمالِ أداة الاستثناءِ ﴿إِلَّا﴾، دون أن يأتي التَّعبيرُ: (لقاتلوا قليلًا)، وذلك للإشارَة إلَى مَكْرِ هؤلاءِ المنافقينَ وخداعِهم، وأنَّهُم لا يقاتِلونَ إلّا خَوْفًا من التَّعييرِ والاتِّهام بالجُبْنِ والتَّخاذُلِ، فعبَّرَ الاستثناءُ عن حالِ خِداعِهم ومكرِهم، فَهُم يوهِمونَ المسلمينَ باشْتراكِهم في القِتالِ، ولكِنَّهم يشتركونَ اشتراكًا لا يُسْمِنُ، ولا يُغني، لسترِ حالِهم، فقتال المنافقين قتال استثناءٍ لا قتالُ أصالةٍ وإصرار؛ فله حكم الشّاذ.

دلالَةُ حَذْفِ المَوْصوفِ:

أفعالُ المنافقين في الخيرِ لا تتعدّى وصفَ القليلِ

حُذِفَ الموصوفُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقدْ تعدَّدتْ أقوالُ المعربينَ في إعرابِ ﴿قَلِيلًا﴾ وتقديرِ الموصوفِ قبْلَها، فمِنْها: إنَّها نائبٌ عن المفعولِ المطلقِ، صِفَةٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذوفٍ، أي: قِتالًا قليلًا، أو إنَّها نائبٌ عن الظرفِ، صفةٌ لظرفٍ محذوفٍ، أي: وقتًا قليلًا، أو إنَّها حالٌ[1]، وفي هذا الحذفِ دلالةٌ على كثرةِ المعاني التي أرادَ النَّظْمُ الحكيمُ الإشارةَ إليها بيانًا لفعلِ المنافقينَ، والحاصل أنَّ هؤلاء المنافقينَ لن يقع منهم قتال إلّا ما يتَّصف بأنَّه قليلٌ، فهو رياءٌ وسُمْعَةٌ من غير احتسابٍ، ولو كانَ ذلكَ القليلُ للّهِ؛ لكانَ كثيرًا، وهذا كقولِ اللّهِ تعالى في صفتهم أيضًا: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: 142][2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحُسبان والظَّنُّ:

الظنُّ: هوَ رُجْحانُ كفَّةِ الإثْباتِ عَلَى كفَّةِ النَّفْيِ، والحُسْبانُ:

(1) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 21/ 255.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 206.

هوَ الظَّنُّ القائمُ عَلَى حِسابٍ حِسّيٍّ وقَلْبيٍّ، أو الاعْتِقادُ القائمُ عَلَى النَّظَرِ والتَّجْرِبَةِ[1]، فَهُنَاكَ فَرْقٌ بينَ قَوْلِكَ: (تَحْسَبُهُم جَميعًا)، و(تَظُنُّهُم جَميعًا)، فَإنَّ قَوْلَكَ: (تَحْسَبُهُم جَميعًا) إنَّما يَكونُ بَعْدَ مُراقَبَةِ أحْوالِهِم، فَكَأنَّكَ أجْرَيْتَ عَمَليَّةً حِسابيَّةً، فَأدَّى حِسابُكَ إلَى ذَلِكَ، بِخِلافِ قولِكَ: (أظنُّهم)، فالحُسْبانُ قائمٌ عَلَى الحِسابِ والنَّظَرِ العَقْليِّ، بِخِلافِ الظَّنِّ الَّذي يَدْخُلُ الذِّهْنَ، ويُلابِسُهُ لأدْنَى سَبَبٍ[2]، ومنْ هُنا فقدْ آثَرَ البيانُ القُرْآنيُّ التَّعبيرَ بالفعلِ ﴿يَحْسَبُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى حرْصِ المُنافقينَ على هَزيمةِ المسلمينَ، فَهُم يُراجِعونَ حساباتِ القوَّةِ في عُقولِهم المرَّةَ تِلوَ المَرَّةِ، راغِبينَ في انكسارِ المسلِمينَ وهَزيمَتِهم.

الظنُّ: رُجْحانُ كفَّةٍ عَلَى أُخرى، والحُسْبانُ: ظَنٌّ قائِمٌ عَلَى حِسابٍ حِسّيٍّ وقَلْبيٍّ

(1) محمد الهلال، تفسير الثري الجامع: 8/ 85.

(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 2/ 23 - 24.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والأربعون،
سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2025.
مج. 44 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-97-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 44 : المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-97-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4197137 بتاريخ 2025/01/02م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»